الحديث الشريف :

كان الله ولم يكن شئ غيره

دكتور/عبد الرحمن محمد المراكبي

مدرس العقيدة والفلسفة

فى كتاب « بدء الخلق » عند البخارى(1) :

عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنهما قال :

« دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب . فأتاه ناس من بنى تميم .

فقال : اقبلوا البشرى يابنى تميم .

قالوا : بشرتنا فأعطنا (مرتين) .

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن .

فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنوا تميم .

قالوا : قد قبلنا يارسول الله .

قالوا : جئنا نسألك عن هذا الأمر(2)

وفى رواية : (جئناك لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان)(3) ؟

قال : كان الله . ولم يكن شيء غيره . وفى رواية :(ولم يكن شيء قبله)(4)

---

(1) أنظر فتح البارى شرح صحيح البخارى : ٢٨٦/٦ ط بيروت .

(2) أى عن حكمه وشأنه كيف كان .

(3) كتاب التوحيد : أنظر فتح البارى :٤٠٣/١٣

(4) كتاب التوحيد : أنظر فتح البارى : ٤٠٣/١٣

وفى رواية غير البخارى (ولم يكن شىء معه)(١) . وفى رواية أبى معاويه (كان الله قبل كل شىء) . وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السماوات والأرض . فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب . فوالله لوددت أنى كنت تركتها » .

وفى رواية التوحيد : (وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم(٢)) .

* * *

والحديث الشريف يوضح لنا معالم الحق فى أمور ثلاثة ضلت فيها أفهام كثير من الخلق :

أولا : وجود الحق سبحانه كحقيقة ثابتة ، وقوة مهيمنة ، ذى قدرة خالقة مبدعة ، وإرادة نافذة مخصصة ، وعلم شامل محيط .

ثانيا : أن العالم - وهو كل ماسوى الله تعالى - حادث مسبوق بعدمه . وأنه لاقديم إلا الله تعالى : وهو ما يدل عليه صراحــــة قوله صلوات الله وسلامه عليه « كان الله ولم يكن شىء غيره) .

ثالثا : تسلسل الخلق فى الوجود ، والإشارة إلى أول مخلوق فى هذا الوجود .

وكل من هذه القضايا الثلاث قد حظيت باهتمام المفكرين والعلماء ، ودارت حولها كثير من المعارك الفكرية والعلمية .

* * *

---

(١) فتح البارى ٦ : ٢٨٩ (٢) فتح البارى ١٣ : ٤١٠

(٣) وفيها يتبين لنا كيف كان حرص الصحابة على ملازمة رسول الله ﷺ والتفقه فى الدين .

١ — قضية الألوهية

أما قضية الألوهية ، فمنذ أن كانت موضوعاً للبحث الفكرى والفلسفى تعتبر من أهم وأبرز المباحث التى لعبت دوراً هاماً وبارزاً فى محيط التفكير الفلسفى « الميتافيزيقى » بل وفى محيط البحث العلمى كذلك . وما تزال ، وستظل تشغل اهتمام كثير من المفكرين والعلماء فى كل يوم ، وفى كل مكان .

ولقد أثرت هذه القضية بوفرة الآراء ، وتضارب الأنظار والأفكار فيها ؛ نظراً لما يدور حولها من تشويه ، أو تشبيه . ومن إنكار أو جحود

ولقد ظلت طغمة من الناس يجحدون وجود الله قديما وحديثا . بل ويرمون المؤمنين به بأفن العقل ، وضحالة الفكر . لأنهم يؤمنون — فى زعمهم — بإله لا نراه ، وبمعبود لا نشاهده .

ولقد طغت هذه النزعات الإلحادية الزائفة طغيانا كبيرا فى عالم اليوم وهى تنادى بالاكتفاء الذاتى للإنسان ، والتفسير المادى للوجود والكون وكأنه ليس ثمة شيء وراء هذا العالم ، وليس ثمة منهج الاستدلال وراء منهج التجربة البشرية فكل مالا يتناوله الحس بجوهره ـ عندهم — ففرض وجوده محال .

وعلى ذلك : فالله فى نظرهم خرافة ، والدين وهم وخداع .

ونحن معهم فى أنه لا يمكن لنا أن نرى الله بأعيننا — وحاشا لله أن تدركه الأبصار — ولا يمكن لنا أن ندركه بحواسنا . وإلا لكان مادة يحويها المكان والزمان . ونحن معهم كذلك فى أنه لا يمكن لنا أن نبرهن على وجود الله كما لو كان شيئا ماديا ؛ لأن الله ليس موضوعاً من موضوعات التجربة نضعه فى مختبراتنا ونجرى عليه تجاربنا .

ولهذا كان لهم شيء من العذر عندما قالوا : إنهم لم يروا الله .

ولكنه لا عذر لهم مطلقا عندما قالوا : إنه لا إله .

ولست أدرى بأى منطق، وبأى علم ينكر هؤلاء دعوى وجود الله؟!

فهل كشف العلم لهؤلاء عن كل ما فى هذا الوجود، فضلا عما وراء هذا الوجود؟!

وهل كل مالم يصل إليه علم الإنسان اليوم يعتبر غير موجود؟

إن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، ومازال يكتشف كل يوم جديداً، بل وما تزال وسائل البحث العلمى وأدواته قاصرة وعاجزة عن أن تصل بالإنسان إلى معرفة كل شيء وإلى الغوص وراء كل حقيقة، ومازال الإنسان يطور وسائل بحثه، ويعاود بحث ما لم يستطع معرفته، ودرك مالم يستطع إدراكه، ومازال يدأب فى بحثه، ويحث الخطى إلى العلم ويغذ السير إلى المعرفة عسى أن يصل إلى علم ما هو جاهل به . وهو يفترض سلفاً إمكان الوصول إليه .

إن مجاهيل الحياة اليوم أمام العلم أكثر من أن تحد، وأسرار الوجود أكثر من أن تحصر، وإن استكناه أسرار الحياة والوجود ليحتاج من البشرية إلى أضعاف ما عاشته البشرية مع البحث والعلم والدرس . وربما لم تصل منه إلا إلى القليل — بل هو ذلك — حتى يفجؤها الموت وتدركها القيامة .

ولهذا يأبى منطق العلم، ومنهج البحث أن ينكر الإنسان مالم يستطع — بوسائله العاجزة، وبعجزه الواضح — أن ينفذ إلى درك حقيقته، ومعرفة كنهه .

ولهذا أيضاً، كان من الجهل المشين، والتعصب المقيت، والتنكر لمنهج البحث العلمى مازعمه أدعياء العلم عندما قالوا : إنه لا إله، وسدوا بذلك

على أنفسهم منافذ الإدراك وأوصدوا أمام مداركهم الأبواب ، وأنكروا ـ لمجرد الإنكار ـ دون ما حجة لهم ـ وجود هذه الحقيقة الظاهرة الباهرة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)(١)

وصدق الله العظيم : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق)(٢)

إنهم يريدون إلهاً مادياً محسوساً .

والحقيقة أنهم يؤمنون بكثير مما ليس بمحسوس لمجرد أنهم ينتفعون بآثاره ويدركون منافعه ولكنهم لا يعلمون حقيقته ، ولا يدركون كنهه . فلماذا ينكرون الله ؟ والكون كله والوجود جميعاً أثر من آثاره ؟ !

إنهم يعيدون إلى الأذهان شبه الجاهلية الأولى من الدهريين والماديين عندما أرادوا رؤية هذا الإله (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً)(٣) .

(وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون)(٤)

لقد قال بنو إسرائيل لموسى : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)(٥)

---

(١) الروم : ٧ (٢) الحج : ٩
(٣) الفرقان : ٢١ (٤) البقرة : ١١٨
(٥) البقرة : ٥٥

ولقد أراهم الله من آياته ودلائل وجوده ، وشواهد قدرته مالا يمكن إنكاره : وقد تبعهم فرعون بجنوده بغياً وعدواً وهم يقولون فرقاً وخوفاً : (إنا لمدركون) . ويطمئنهم نبيهم (كلا إن معي ربي سيهدين) ويجعل الله لهم إلى النجاة طريقاً فيجعل لهم طريقاً في البحر يبساً . وما إن جاوزوا أليم حتى وجدوا قوماً يعكفون على أصنام لهم فإذا هم يقولون لنبيهم (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين)(١)

لقد أرادوه حجراً يعبدونه ، أو عجلا يقدسونه لأنهم يريدون إلهاً مادياً محسوساً .

وهكذا ينحط الإنسان الذي كرمه الله وقد خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وسخر له مافي السماوات ومافي الأرض جميعاً منه ليقدس عجلا ويعبد حجراً ويتخذ إلهاً وثناً .

وهكذا تريد مادية اليوم أن تكون : وصدق الله العظيم (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ولكن الدلائل لا تفيد إلا من يعقلها ويوقنها . (كذلك بينا الآيات لقوم يوقنون)(٢) .

إنها شبهة قديمة جاهلية يرددها المتعالمون اليوم وهم يزعمون التقدم والعلمانية ، ويرمون غيرهم من المؤمنين بالتخلف والرجعية .

إن الآيات البينة والشواهد الناطقة ، والدلائل الواضحة على وجود الله أكثر من أن تحصى ، وهي من الوضوح بحيث لا تخفى . فأدلة النظام ، والإبداع ، والعناية ، والخلق وغيرها مما أشبعها العلماء بحثاً ودرساً

---

(١) الأعراف : ١٤٠ (٢) البقرة : ١١٨

وغصت بها كتب الفلسفة والكلام هى أعظم من أن يتحملها بحث أو مقال .

إن المشكلة ليست فى قلة الأدلة على وجود الله ، أو عدم وضوحها وظهورها ولكنها تكمن فى هذا التحول الخطير بالمادة عن الروح ، وفى هذه الغفلة عن الله .

فى هذا البريق الخادع الذى أحدثه العلم المادى ، وظن أهله أنهم به ملكوا الدنيا ، واستغنوا به عن الله ، وفتن به الناس من حولهم فانشغلوا بالمادة عن الروح ، وبالدنيا عن الدين ، وأضحوا تروسا فى عجلة الحياة المادية ، حتى فقدوا وعيهم مع دوارها وحركتها الدائبة ، فعصفت بهم الشكوك ، واجتاحهم الإلحاد . حتى أعلنوا الحرب على الله ، وأعلنوا العداء لكل دين وخرجوا على الصالح من الأعراف والتقاليد ، وانطلقوا فى هذه الحياة يعربدون ، ويدمرون المبادىء والقيم ويأتون من الأفعال ما يعف عنه الشيطان ، وكأنهم بذلك قد فتحوا للناس فتحاً جديداً ، ووضعوا أيديهم على كشف علمى جديد .

والحق : أن تهافت هذه النزعات الإلحادية المتطرفة لا يخفى ، وما يتذرعون به من الأوهام والشكوك لا يثبت أمام النقد البناء ، والمنهج العلمى الصحيح . وحتى لو أنهم رأوا الله وجاءهم الله والملائكة قبيلا لن يؤمنوا ولن يذعنوا (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)(١) . ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين)(٢) (ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) .

---

(١) الحجر : ١٤

(٢) الأنعام : ٧

وهكذا كلما تحول الإنسان عن الله . أظلمت بصيرته ، وضل عقله وزاغ قلبه (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

وصدق الله العظيم سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وأن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وأن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وأن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)(١) .

ومهما كان من الحملات العنيفة ، والتخرصات الكاذبة ، وضروب الإنكار الصريحة إلا أن وراء تلك المزاعم العقلية العريضة يكمن دائما إيمان باطن ، أو شعور خفى بأن ثمة شيئا فيما وراء العالم الطبيعى المرئى... ومهما كان من أمر البراهين العقلية ، أو الاستدلالات المنطقية فإن هذا الإيمان قد يبقى بمنأى عن كل ارتياب وكأنما يستمد قوته من مصدر علوى هيهات أن تزعزعه الشكوك » « وإننا لو نفذنا إلى أعمق ظلمات الشعور الإنسانى لما وجدنا ملحدين بمعنى الكلمة ، « ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن الإنسان موجود متدين قبل أن يكون حيوانا مدنيا ، أو كائنا اجتماعيا »(٢) .

ولعل ذلك هو سر هذه الحملة الشرسة المسعورة التى يشنها هؤلاء على الله والدين . لأنهم يريدون أن يتخلصوا من هذا السلطان الذى يستولى على قلوبهم ، وكأنهم يحملون فى حناياهم الإقرار بهذا الدين والاعتراف بهذا الإله وإلا فكيف يحاربون ما لا وجود له فى نظرهم .

وهذه الحياة المادية وإن أضلت الناس عن الله ، وباعدت بينهم وبين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ومهما طالت غربة الناس عن ذواتهم ،

---

(١) الأعراف ١٤٦

(٢) مشكلة الإنسان : ١٨٥ د : زكريا إبراهيم .

وبعدهم عن أرواحهم فلا شك أن لهم حنيننا إليها . ولا يمكن لشيء ما أن يقضى على هذه الفطرة ، ولا أن يفقد الإنسان روحه . لأن الإنسان لا يمكن له أن يعيش بأحد جزئيه وقد خلقه الله جسداً وروحاً . بل هو روح بأعظم جزئيه فلئن طغت طينته يوما فلن تموت روحه أبداً .

وهذا هو سر عودة كثير من الناس إلى الدين فى هـــذه الأيام ، ولاسيما فى الدول التى أرادت القضاء على الدين ، وذلك بعد أن أقفرت قلوب الناس منه .

وقد يبدو غريبا أن يدخل الدين فى تفكير الناس فى هذا العصر ، وأن يذكر فى الزحام الذى يساق فيه الناس سوقا إلى مطالب وغايات كلها مادى ، وكلها خالص لحساب الجسد وليس للروح منه نصيب ! قد يثير هذا عجبا ولكن الذى يتجاوز بنظره هذا المستوى السطحى للحياة يرى أن وراء هذا المستوى دنيا أخرى غير هذه الدنيا التى يتقلب فيها الناس ، وأن الذى يبـــدو لنا من مادية متحكمة فى موازين الحياة ليس إلا ثوبا مستعارا »(١) .

---

(١) الله ذاتاً وموضوعاً : ١١ — ١ : عبد الكريم الخطيب .

٢ ـ حدوث العالم

أما حدوث العالم وقدمه : فهى قضية من أبرز القضايا الفلسفية والكلامية ، وقد حظيت باهتمام العلماء منذ أن كانت موضوعاً للبحث ، ولا تزال حتى اليوم . وللفلاسفة والمتكلمين فيها خلاف مشهور .

يقول فيلسوف قرطبة (أبو الوليد بن رشد) فى كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » : إنه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا نصاًفيه أبداً .

إن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة فى الإنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين . أعنى غير منقطع .. وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء يقتضى بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود : وهو العرش والماء ، وزمانا قبل هذا الزمان . أعنى المقترن بصورة هذا الوجود الذى هو عدد حركة الفلك .

وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضى أيضا بظاهره أن وجوداً ثانيا بعد هذا الوجود .

وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) يقتضى بظاهره أن السماوات خلقت من شىء »[1] .

ويفصل ابن رشد بين موجودات ثلاثة :

١ ـ موجود : وجد من شىء (أى من مادة وعن سبب فاعل) والزمان متقدم عليه . وهذه هى جميع الموجودات من الأجسام التى تدرك بالحس .

---

(١) فصل المقال : ٤٢ ، ٤٣

٢ — وموجود: لم يكن من شيء، ولا عن شيء، ولا تقدمه زمان. وهو (الله) تعالى. والأول: محدث باتفاق. والثانى: قديم باتفاق.

٣ — وموجود: عن شيء، ولكنه لم يكن من شيء، ولا تقدمه زمان. وهذا هو العالم بأسره(١).

وهذا الأخير هو محل الخلاف بين الفلاسفة والمتكلمين. والخلاف فى أولية وجوده.

ويرى أبو الوليد: أن هـــذا النوع من الوجود ليس محدثا حدوثا حقيقياً، ولا قديما قدماً حقيقيا. فإن المحدث الحقيقى فاسد بالضرورة، والقديم الحقيقى ليس له علة(٢).

ونحن معه على هذا التقسيم. ولكننا لا نسلم له أن هذا النوع ليس بمحدث على الحقيقة وعدم الفساد فى المستقبل — على فرض تسليمه — لا يدل على القدم فى الماضى. ولكن القدم فى الماضى هو الذى يدل على عدم الفساد فى المستقبل. والذى معنا ليس كذلك.

وهذا الذى ذهب إليه «أبو الوليد» متابعاً فيه رأى أرسطو ومن تبعه من فلاسفة الإسلام «كأبى نصر، وابن سينا» هو ما يستلزمه مذهبهم فى القول «بواجب الوجود» فإن من لوازم إطلاق واجب الوجود على

---

(١) أنظر المقال: ٤٠، ٤١، يعنى أصوله التى هى: العقول والنفوس والأجسام الفلكية وصورها الجسمية والنوعية، والمادة، والعنصريات وهى المواليد الثلاثة: الحيوان، والنبات، والمعدن وأصول تلك العنصريات وهى العناصر الأربعة: الماء، والتراب، والهواء، والنار، والزمان. هذه الأشياء كلها قديمة فى نظر الفلاسفة.

(٢) أنظر المقال: ٤٢

الله تعالى عند الفلاسفة أن يكون العالم(١) مصاحباً له فى الوجود . ضرورة لزوم المعلول لعلته التامة ، وعدم انفكاكه عنها .

ولما كان الممكن محتاجا إلى الواجب . فهو مسبوق به حتما ، والعلة متقدمة — ضرورة — على المعلول ، إذ لاتعقل العلة إلا على أنها علة لمعلول ولا يعقل وجود المعلول إلا إذا تقدمته علة .

وقد يتصور القارىء لهذا القول أن فيه شيئا من التناقض ، فكيف يكون وجود المعلول مع علته ضرورة ملازمته لها . ثم يكون متأخراً عنها ضرورة تأخر المعلول عن علته إذ لا يعقل وجود المعلول إلا إذا تقدمته علته ؟ !

ولكن الفلاسفة يرون أن هذا التقدم ليس تقدماً زمانيا — كما يمكن أن يفهم — ولكنه تقدم ذاتى . لأن المعلول يجب أن يكون مصاحباً لعلته فى الزمان(٢) .

فلكل ممكن علة هى أقدم منه ؛ لأن كل علة هى أقدم فى وجود الذات من المعلول وإن لم يكن فى الزمان ، كتقدم حركة الإصبع على الخاتم ، وكتقدم حركة اليد على حركة المفتاح ، وهذا مثل ما تقول : حركت يدى فتحرك المفتاح أو ثم تحرك المفتاح ، ولا تقول : تحرك المفتاح فتحركت يدى ، أو ثم تحركت يدى . وإن كانا معــاً فى الزمان . فهذه بعدية بالذات»(٣) .

---

(١) أعنى بعضه وهو الصادر عن الواجب صدوراً أولياً من غير واسطة

(٢) وهم يقسمون التقدم والتأخر تقسيا غير حاصر إلى خمسة أنواع : بالذات ، والوضع ، والطبع ، والشرف ، والزمان .

(٣) الإشارات والتنبيهات :٣/١٠٥ تحقيق دنيا

« وأيضا فإن ما يجب بغيره فوجوده بالذات متأخر عن وجود ذلك الغير ومتوقف عليه »(١).

وعلى ذلك فرأى الفلسفة الإسلامية كما يمثلها ابن سينا والفارابي وابن رشد — متابعين رأى معلمهم الأول — هو القول بقدم العالم قدماً زمانياً، وإن كان حادثا حدوثا ذاتياً .

وهذا هو معنى قول « أبي الوليد »: « إنه ليس محدثاً حدوثاً حقيقياً، ولا قديما قدماً حقيقياً » .

يقول الإمام حجة الإسلام « الغزالى » :

« والذى استقر عليه رأى جماهيرهم المتقدمين والمتأخرين: القول بقدمه — أى العالم — وأنه لم يزل موجوداً مع الله تعالى ، ومعلولا له ، ومساوقاً له غير متأخر عنه بالزمان مساوقة المعلول للعلة ، ومساوقة النور للشمس ، وأن تقدم البارى عليه كتقدم العلة على المعلول . وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان »(٢) .

ولم يشذ عن هذا الرأى من المتقدمين والمتأخرين إلا القليل(٣) .

وعلى ذلك فالقديم عندهم له معنيان : قديم بالذات، وقديم بالغير .

والقديم بذاته هو واجب الوجود . وهو الله سبحانه، الذى تقتضى ذاته الوجود والكمال المطلق فلا يحتاج إلى غيره لا فى وجوده ، ولا فى كماله .

---

(١) النجاة : ٢٢٧ عن الجانب الإلهى : ٤٧٢ د/ البهى

(٢) تهافت الفلاسفة : ٨٨ تحقيق دنيا

(٣) كالمشهور من مذهب أفلاطون ، والكندى من فلاسفة الإسلام ، وقد توقف « جالينوس » من القدامى لا يدرى إن كان العالم قديما أو محدثا

أما القديم لغيره : فهو الممكن الذى لم يسبق بعدمه ، وإن كان مسبوقا بغيره وهو الواجب سبقا ذاتياً ، لا زمانياً كما تقدم .

وهذا الممكن قد صدر عن الأول بطريق التعليل ، والمعلول مرتبط بعلته التامة ، وأعنى بالعلة التامة : ما كانت مستجمعة لكل شروط التأثير فى الأثر .

وما دامت العلة تامة فلا يمكن أن يتأخر المعلول عنها زمانا ، وعلى ذلك فهو قديم قدم العلة .

ولقد كان ابن سينا كأستاذه (أرسطو) غير جازم بالقدم . فأرسطو يرى أن العلة الفاعلية يجب أن تسبق فى الزمن معلولها . فيقول :

«والعلل الفاعلية وجود سابق على معلولاتها ، أما العلل الصورية فهى مقارنة فى الزمان لمعلولاتها»(١) .

ويقول الأستاذ يوسف كرم : «إن أرسطو يعترف فى كتابه (الجدل) بأن مسألة قدم العالم من الأمور الجدلية التى تحتمل أكثر من قول واحد»(٢) .

ولهذا رأينا ابن سينا متأرجحاً : يجزم مرة بالقدم ويدافع عنه لأن واجب الوجود بذاته واجب الوجود فى جميع صفاته وأحواله فلا يعرض له تغير الأحوال وتبدل الشئون ، ومرة يتحدث بلغة غير لغة الجزم فيقول: «وإن لم يمتنع أن يكونا معاً فى الزمان»(٣) .

---

(١) ابن سينا بين الدين والفلسفة : ١٠٢ نقلا عن مقاله اللام لأرسطو د/ حموده غرابة

(٢) ما بعد الطبيعة : ١٨٩

(٣) الاشارات : ٣ / ٨٤

يقول الدكتور : البهى « ويبدو أن ابن سينا — فى مصاحبة العالم فى الوقوع لواجب الوجود — فى توفيقه بين الدين والفلسفة قد يكتفى بتجويز العقل لقدم العالم قدما زمانيا دون حاجة إلى التشدد فى أن يذهب أبعد من ذلك إلى ما تتطلبه فكرة الواجب من لزوم قدمه فى الزمان لزوما عقليا(١).

ولقد قال المتكلمون بالحدوث . ولكن أدلتهم على الحدوث لم تسلم من النقد ، ولم أر فيما قرأته فى الموضوع دليلا واحداً قد سلم من إيراد أو إبطال أو اعتراض .

يقول الدكتور/حموده غرابة : والقول بامتناع حوادث متعاقبة فى جانب الماضى لا إلى نهاية والذى يتوقف عليه دليل المتكلمين مازال إلى اليوم بحاجة إلى دليل صحيح(٢).

ويرى الأستاذ الإمام : أن برهان التطبيق عبارة عن سفسطه ، وأن برهان التضايف لا صحة له على أى وجه تحرر(٣) .

ولقد أفاض (الدوانى) فى إثبات حدوث العالم وأطال ، ثم اعتذر عن الإطالة بقوله :

وإنما أشبعنا الكلام فى هذا المقام لأنه أصل من أصول العقائد الدينية ، وقد كثر فيه تعارك الآراء ، وتصادم الأهواء ، ولم يأت جمهور المتكلمين فى هذا المبحث بشيء يتعلق بقلب الأذكياء بل اجتهدوا فى ايراد المنوع البعيدة التى يأباها الطبع المستقيم أشد الإباء فبقيت نفوس الناظرين فيها مائلة إلى مذهب الحكماء ، بل الأئمة التى أوردوها شأنهم ذلك بلا امتراء ».

---

(١) الجانب الإلهى : ٤٧١

(٢) الأشعرى : ١٤٢ - د. حموده غرابة

(٣) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ١ - ٣٦ تحقيق دنيا

وقد علق الأستاذ الإمام عليه . بأنه قد شنع عليهم فى رسالة الزوراء ما هو أكثر من هذا إلا أنه لم يخالفهم إلى العلم الإجمالى بل خالفهم إلى سفسطة[١] » .

والحقيقة أن إثبات حدوث العالم لا يحتاج منا إلى جهد كبير إذا كنا نؤمن بنظرية الخلق واختيار الواجب كما أفاضت بهما النصوص القرآنية من مثل قوله تعالى : (وربك يخلق ما يشاء ويختار)[٢] (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء)[٣] . (قال كذلك الله يخلق ما يشاء)[٤] . (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)[٥] .

ولسنا نعنى بالاختيار ماذهب إليه الفلاسفة من أن هذا العالم قد صدر عن الواجب برضاه .

ولكن المختار : من إذا شاء فعل ، وإذا لم يشأ لم يفعل . (والله قادر مختار) . وعلى ذلك نقول :

العالم — وهو كل ما سوى الله تعالى — ممكن — .

وكل ممكن حادث — فالعالم حادث .

يقول الأستاذ الإمام[٦] : من أحكام الممكن أنه إن وجد يكون حادثا ، لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب .

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ١٧٠/١ تحقيق دنيا .

(٢) القصص : ٦٨ .

(٣) الشورى : ٤٩ .

(٤) آل عمران : ٤٧ .

(٥) يس : ٨٢ .

(٦) أنظر رسالة التوحيد نقلا عن غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين : ٦٩ .